القديسة مريم المصرية التائبة



اهداءات ٢٠٠٢

القمص/ متى المسكين

الثمن ٣٥ قرشاً

من سير القديسين والقديسات

- ١ -

القديسة مريم المصرية التائبة
والقديس زوسيما الراهب والقس

دار مجلة مرقس

كتاب: **القديسة مريم المصرية التائبة والقديس زوسيما**

المؤلف: **دار مجلة مرقس**

الطبعة الرابعة: ٢٠٠٠

مطبعة دير القديس أنبا مقار ـ وادي النطرون

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٨٦/٥٩٥٤

الترقيم الدولي: ١ ـ ٠٥١ ـ ٤٤٨ ـ ٩٧٧

الناشر: دار مجلة مرقس

٥٠ " أ " شارع شبرا ـ القاهرة

ص. ب ٣١ شبرا ـ القاهرة ـ ت ٥٧٧٠٦١٤

القديسة مريم المصرية التائبة
والقديس زوسيا الراهب والقس(١)

***

في أوائل القرن الرابع، كان يعيش في أحد أديرة فلسطين العديدة، راهب قديس، يُدعى زوسيا. وإذ كان قد انطلق منذ شبابه المبكر، أي منذ السابعة عشر عاماً من عمره، ليمارس الفضيلة هناك، إجتاز في جميع مراحل الحياة النسكية. فتراكض الناس من كل حَدْب وصَوْب طلباً لنصائحه. وأثناء ممارسته لعمل يديه، وعلى المائدة، وفي الراحة، لم يكن يغيب عن باله قط إحساسه بالحضرة الإلهية المقدسة. وأبهى أوقات يومه كان يقضيه في مطالعة الرسائل المقدسة وتلاوة المزامير. وكان البعض يؤكدون أن استنارات إلهية تضيء نفسه وأن ظهورات سماوية كانت تبهج أنظاره.

وكان زوسيا يحس في نفسه أنه قد وُلِد من أجل الحياة في التوحد والإنفراد. وإذ كان منساقاً منذ بكور حياته إلى هذه الحياة، كان ينتزع نفسه إنتزاعاً من بين أذرع والده. وخلال ثلاثة وخمسين عاماً لم يكن يجابه جهاداً إلا قليلاً جداً؛ ولكن فيما بعد بدأت تجارب المجد الباطل تهاجم نفسه بشدة. فكان يقول لنفسه: «هل تظن أنه يوجد على الأرض ناسك يمكن أن يباريك؟ أين إذن ذاك الذي يمكن أن يعلِّمك تدريباً أو عبادة وأنت لا تتفوق عليه، أو فعل توبة وأنت لم تمارسه؟ وهل

(١) باعتبار أن سيرة القديس زوسيا ليست منفصلة عن سيرة القديسة مريم المصرية، لذا نوردها هنا بالرغم من أنه ليس من مصر، و يُحتفل بعيده يوم ٩ برمودة الموافق ١٧ أبريل من كل عام.

تحوي البرية بين جنباتها حكيماً يتقدم عليك في طريق المعارف؟»

وبينما كانت هذه الأفكار الخادعة تراود رأس خادم الله بعناد، سمع صوتاً داخلياً يقول له: «يا مسكين، يا زوسيا! يقيناً أنك فعلت كل ما في إستطاعة أي بشر: حقاً لقد عبرت حسناً بكل ميادين الحكمة الرهبانية؛ ولكن مَنْ، إذن، بين البشر يستطيع إدعاء أنه كامل؟ إن الطريق الذي أكملته لا يُعَدُّ شيئاً بالمقارنة مع ذلك الذي يتبقى عليك أن تكمله، حتى تتعلم كم أنَّ الطرق المؤدية إلى الخلاص متنوعة. فاخرجْ من ديرك وأُهجرْ بلاد شبابك، وكإبراهيم جديد(٢) إمْضِ إلى البقعة الجديدة التي سيدلُّك الله عليها، وحيث ينبغي أن تكمِّل مسيرتك، إعتزلْ في أحد أديرة شواطىء الأردن(٣)».

وأطاع زوسيا بلا تردد هذه الدعوة التي من السماء، وودع مغارته، شهادة صامتة لتضحياته وفضائله. وترك الموضع الذي قضى فيه سنوات مضنية من حياته هذا عددها، ومضى مُنْقاداً بالرسالة السماوية إلى الأردن. ولم يتركه رفيقه إلا أمام أبواب ملجأه الجديد حيث كان ينبغي أن يمضي بقية أيامه.

واستقبله المدبِّر بلطف. وقد كان للثوب الفقير الذي يلبسه وأسلوب الإتضاع

---

(٢) إبن تارح المولود في أور الكلدانيين، وهي اليوم موغيئير، ونحو ٢٠٠٠ سنة قبل المسيح ترك بلاده بأمر الله وجاء ليقيم في حاران في العراق مع عائلته، واتجه منها إلى أرض كنعان إلى بيت إيل ثم حبرون وفي زمن المجاعة نزل إلى مصر وأنجبت له سارة زوجته وهي في سن التسعين عاماً ابناً هو إسحق الذي طلب منه الله فيما بعد لكيما يجرِّبه، أن يذبحه على جبل المُريَّا، الذي عليه كان ينبغي أن يرتفع فيما بعد هيكل أورشليم؛ وقد حوَّل ملاك ذراعه وذبح خروفاً بدلاً من إسحق. ومات إبراهيم عن ١٧٥ سنة.

(٣) لسنا نعرف جيداً في أيٍّ منها. ربما حيث عاش القديس يوحنا المعمدان أو حيث سكن القديس جيراسيموس الذي يرجع تاريخه إلى نفس ذلك العصر أيضاً. والدير الذي يُقال له للقديس جيراسيموس، يُسمى خطأً هكذا، إنه دير القلمون (أو القصب) الذي يوجد على موقع المدينة القديمة بيت حجلة (المعاصر ليشوع).

للـوافد الجديد دور كبير في إنطباع الرضى الذي أحس به هذا المدبِّر الحكيم ؛ فسأله : « من أين أتيت أيها الأخ؟ ولماذا نزلت إلى مساكين مثلنا ؟ »

ــ « لا يهـم من أين أنـا أتيت ، لأني لست أبتغي إلا أمراً واحداً هو التقدم في الكمال . لقد سمعت كثيراً من المديح يتردد عنك فأسرعت كي أتعلم من قدوتكم » .

ــ « إن الله وحده وهو الذي يعرف بؤسنا ، سيعلِّمك كما يعلِّمنا ، أيها الأخ ، الطريق الذي ينبغي أن تتبعه كيا تحقق مشيئاته فيك . وحيث أن محبة الله قد دفعتك للمجيء وزيارة شيوخ بسطاء مثلنا ، فامكثْ معنا دون اهتمام بأي شيء آخر ؛ والراعي الصالح قادر تماماً على أن يعولنا كل يوم » . وعلى أثر كلمات هذا الإستقبال الكريمة ، إنحنى زوسيما وطلب ثانية من المدبِّر بركته ، واتخذ مكانه وسط إخوة هذا الدير القديسين... وعَبْرَ زمان طويل كانت هناك كل يوم أمور عجيبة جديدة تذهل عينيه وقلبه .

ولم تكن الصلاة بالمزامير تنقطع من هذا الفردوس الحقيقي ؛ والتسابيح كانت على أفواه الإخوة بصورة دائمة ، ولم ينقطع العمل من أيديهم ، ولم تكن هناك قط أية محادثات فارغة ، ولا أي اهتمام بالأمور الأرضية ؛ بل كان كل واحد يسعى للموت عن جسده كما سبق أن مات فعلاً عن العالم ، وأيضاً كانت المحادثات الروحية تقريباً هي الغذاء السائد لإشباع النفوس ؛ وأما طعام الجسد فكان قليلاً من الخبز والماء ، حتى لا يسقط أحد من الجوع ، وعَبَر زوسيما كل هذه الحياة واستوعبها بسرعة تستدعي الإعجاب .

غير أنه قد جاء الزمان في عبوره السريع ، بالأيام المباركة التي للأربعين المقدسة ؛ التي تهيىء العابد لأعياد الفصح . ولم يكن هناك قط أي مكان يقدِّسه

الناس أفضل من عَبْر الأردن. فالبرية الموحشة المجاورة التي تشهد لصوم المسيح الجليل، كانت لا تزال تثير في الرهبان الغيرة لممارسات التوبة الأكثر تقشفاً.

وكان دير زوسيما يسرِّح في هذا الموسم المقدس كل سكانه إلى البرية و يغلق أبوابه خلفهم، فمنذ الأحد الأول من الصوم المقدس و بعد الإحتفال بترتيل خدمة الليتورجية المقدسة، وإذ يكون جميع الرهبان قد اشتركوا في الأسرار المقدسة، كانوا يرددون بعض صلوات خاصة بهذه المناسبة، ثم يتبادل كل واحد قبلة السلام مع رفيقه، ثم يجثو أمام المدبِّر طالباً منه العفو عن سهواته و يسأل بركته. و يرتل مزموراً أخيراً من أجل الرحيل، وهكذا كانت الجماعة تنطلق كلها خارج الأسوار. حينئذ كان كل أخ يعبر الأردن بسرور ثم يتفرقون في تلك البرية الواسعة كل واحد من ناحيته، يطلبون العزلة المطلقة. وكان هناك شبه مَنْع رسمي من التلاقي؛ بل وأمر مشدَّد بالهرب إلى موضع آخر، لو حدث أن لمح أحد أيّ أخ من بعيد صدفة. والزاد للطريق كان قليلاً جداً، فالبعض كانوا يأخذون معهم بعض قبضات من الحنطة، والتين والزيتون؛ والآخرون إذ كانوا معتمدِين كلية على المعونة الإلهية، لم يكن متاعهم كله سوى معطفهم، فالإنسان ما كان ينبغي عليه، وما كان يستطيع أن يعيش إلا من الله ومن أجل الله.

وكان أحد الشعانين سيحلُّ بعد ذلك بخمسة أسابيع، وهو اليوم الذي يسترجع إلى الدير ضيوفه المتفرقين، وكان ضميرهم الخاص يظل هو الحَكَمُ المؤتمن لكل تدر يباتهم من أجل القداسة، كما كان في ذلك هو الملهم الفريد والشاهد الوحيد. ولم يكن أحد قط في مقابل ذلك يجرؤ على أن يسأل أخاه عن أعماله أو فضائله الروحية، خشية أن يدهمه شعور بالمجد الباطل و يقلب فضيلته رأساً على عقب.

هكذا فعل زوسيما مثل الآخرين، فخرج إلى النهر حاملاً بعض مؤونات في يده

وتـوغل في عزلة إلى جبال موآب(٤)، مفترضاً أن هذه المناطق الجافة كفيلة بأن توفِّر مـأوىً لـواحـد مـن الهـائمين حباً في البرية، فقرر أن يتغرب هناك طوال فترة الصوم المـقـدس. وسـار مـدة عـشرين يوماً بلا إنقطاع متقدماً إلى الأمام وهو يهذُّ في المزامير والـصلـوات، ولم يـكـن يتوقف إلا عند غروب الشمس، كي يتناول طعاماً ضئيلاً و يتمدد على الأرض بضع ساعات متدثِّراً بمعطفه.

وكـان الـصوم الكبير على وشك الإنتهاء؛ وكان عليه أن يفكر في العودة، وأمال زوسيما طـريـقـه قليلاً إلى الشرق. وكانت شمس النهار في كبد السماء ترسل أشعتها الحـارقة على الـرمـال حتى كـادت الصخور تحترق وتذوب. وجثا على ركبتيه وصلى رافـعـاً عـيـنيه إلى السماء، وإذا به فجأة يلمح عن يمينه مايشبه جسماً بشرياً. ولأول وهـلـة ظن أنه الشيطان الذي جاء ليجربه، وإذ كان مرتعداً تماماً من الخوف رسم عـلامة صليب كبيرة حينما ظهر الطيف؛ ولأنه تسلَّح هكذا، أخذ يفكر بوعي أكثر، إن عـينيه لا تخدعانه، فإن شكلاً بشرياً كان يهيم من ناحية الجنوب؛ وهذا الطيف المـتـحـرك كـان يـبـدو مجرَّداً مـن الملابس، وجلده برونزياً، كما لو كان محترقاً من الشمس؛ والشعر القصير والقليل جداً مظهره كالكتان. ولم يشك زوسيما لحظة في أن الله أراد أن يـشـبـع شـهـوات نـفـسـه الخـفية؛ فسار في إتجاه الكائن الذي لمحه؛ وقد استـحـثه الفرح ليوسع خطواته مسرعاً لمعرفة حقيقة هذه الرؤية، لعلها كانت أموراً عجيبة.

و بـخـطوة سـريعة هربت تلك الشخصية الغامضة، عند رؤيته؛ وكما لو كان زوسيما قـد تـناسى ثقل السنين، شرع في تتبعها. وإلى فترة طويلة ظلت المسافة بينهما

(٤) سلـسـلـة جـبـال تـمـتـد على طول البحر الميت الى الشرق وتشتق اسمها الخاص بالجنس من البلاد التي كان يسكنها سابقاً الموآبيون، من سلالة موآب، ابن لوط.

كما هي، ولكن قليلاً قليلاً، أسرع الراهب وصار للوقت على مسمع من الصوت. وحينئذ صاح بقوة ضاعفت أيضاً من سعادته: «يا عبد الله يا أخي، مَنْ تكون أنت، إنتظر! لماذا تهرب هكذا من شيخ؟ مهما تكن، إنتظرني من أجل محبة ذاك الذي أتيت تخدمه في البرية! إنتظر شيخاً مسكيناً». وأشفق هذا «الطيف» على توسلاته، وتوقف عند جُرْفِ وادٍ صغير يشبه تماماً مصطبة جافة لأحد السيول، وإذ قد أُجهد زوسيما من التعب سقط على ركبتيه وبدأ يصيح، ووجهه غارق بين يديه. حينئذ تكلم الكائن المجهول: «يا أنبا زوسيما سامحني باسم الرب؛ لأني لا أستطيع أن أتوقف ولا حتى أن أبقى فقط بجانبك لأني امرأة. لذا فإن كنت تستطيع أن تصنع معروفاً لخاطئة كبيرة، فاترك لي معطفك عوضاً عن ثيابي التي سقطت مهلهلة من طويل الإستعمال، وهَبْني بركتك المقدسة».

فلما سمع زوسيما أنه يُنَادَى هكذا باسمه في عمق البرية، من كائن لم يره قط أدرك في الحال أن هذه المرأة لم تكن تستطيع لتعرفه إلا باستعلان. فرمى لها للوقت معطفه. وحينئذ لما ألقته على كتفيها، قالت هذه المسكينة: «يا أبي، لماذا فكرت في أن تأتي وتزور خاطئة بائسة؟ لماذا إحتملت هذه الأتعاب الشديدة برجاء، فهل أنا قادرة على أن أُعلِّمك شيئاً نافعاً لكمالك؟». وكانت جاثية وهي تتكلم بهذا الكلام؛ واتخذ زوسيما نفس الوضع تلقائياً، وظلاً هكذا بعض الوقت صامِتَيْن، جاثيين الواحد نحو الآخر. وأخيراً قالت له: «يا أنبا زوسيما أرجوك أن تباركني؛ إنك كاهن، وكرامتك التي لا تقدَّر والأسرار المقدسة التي تمارسها دائماً تخوِّلك هذا الحق». وملأ هذا الإستعلان الجديد في نوعه الأب زوسيما رعدة؛ وبالكاد استطاع أن يتغلب على خوفه ليقول لها: «إني أُقرُّ أيتها الأم المباركة أنكِ قد ارتفعتِ جداً فوق الأمور الأرضية. وأن الله قد غمرك بمواهبه العجيبة. لقد ناديتني باسمي، وأنتِ تعلمين أني كاهن رغم أننا لم نَرَ بعضنا بعضاً قط، وعلى ذلك فإننا لا نقيس نِعم الله

على الكرامة مهما عَلَتْ، بل بالأولى على إعلانات الله المعجزية؛ لهذا فإني أستحلفك باسم الله باركيني، وصلِّي لأجلي».

فأذعنت للوقت، لإلحاحات الشيخ، و باركته قائلة: «مباركٌ الله الذي يتنازل و يكمِّل خلاص نفوسنا!»

ـ فأجاب زوسيا: «آمين».

وحينئذ قاما الإثنان كلاهما، وأكملت المرأة الناسكة: «لماذا أيها الرجل القديس أتيتَ إلى خاطئة؟ لماذا صممت على رؤية امرأة مجردة من كل فضيلة؟ ولكن حيث أن روح الله قد وجَّهَكَ نحوي، فأَعلمني كلاماً قليلاً عن ملكوت الله في العالم. فلي زمان طويل في البرية ولم أرَ كائناً حيًّا!» وأشبع زوسيا فضول التقوى للحبيسة المتصوفة؛ وقبل أن يتخذ طريقه للعودة ألحَّ في التوصية على طلب صلواتها. وقالت هي:

ـ «يا أبي، اليومَ يجب عليك وأنت الكاهن أن تصلي من أجلي ومن أجل جميع الخطاة، وهذا هو واجبك، لأنه لهذا قد وُضِعَتْ عليك الأيادي».

وإذ أكملت هذه الأقوال، حوَّلت وجهها إلى ناحية المشرق، ورفعت عينيها إلى السماء و بسطت يديها وانسكبت في الصلاة. وكانت شفتاها تتحركان كما لو كانت تنبسُ ببعض الأقوال، ولكن زوسيا لم يدرك أي صوت. وظل مقترباً جداً وصامتاً وعيناه مثبتتان على الأرض. وإذ طالت صلاة القديسة عن الحد، رفع رأسه ورآها في حالة دهش، مرتفعة حواليْ ذراع. وعبر على عقله فكرٌ أن الشيطان هو الذي أكمل هذه العجيبة، واعتقد أيضاً أنها كانت تمثل بمهارة التقوى المشابهة لوضع الصلاة. ولكنها قالت: «يا أبي أية أفكار غريبة تدهم الآن تصوراتك؟! إني لا أكلُّ قط من الصلاة، وليس للشيطان شيء قط فيما قد رأيت. حقاً إني خاطئة كبيرة؛ ولكن الله سامحها وهو يسكب عليها كنوز مراحمه اللانهائية».

وكان زوسيا في إعجاب خفي وهو بإزاء نفس مجمَّلة بمواهب إلهية فريدة هكذا؛ وأراد، لو أمكن، أن يتوغل إلى السر الحيّ الذي أمام عينيه، وبجسارة تقية قال: «بربنا يسوع المسيح الذي قادني نحوك، أستحلفك أن تروي لي قصة حياتك. مَنْ أنتِ؟ ومن أين رحلتِ لتأتي وتسكني في هذه العزلة الرهيبة؟ ومنذ متى وأنتِ تعيشين ههنا؟ وكيف تعيشين؟ لا تُخفي عني شيئاً؛ لأني مهتم بأن أعلن أعمال الله. لأنه حقاً أية منفعة قد تكون لكنز مخفي؟ قولي لي إذن كل سيرة حياتك، ليس بزهوٍ بل من أجل أن تعلمي مسكيناً خاطئاً مثلي».

ــ «إني أستحي يا أبي، من أن أعلن لك مخازي حياتي؛ فسامحني أولاً من أجل استحقاقات ربنا. نعم سأقول لك كل شيء، حتى ما تعرف مدى شقاوتي. فليس خوفاً من خطأ الزهو إنحبَسَت الكلمة في شفتيَّ، بل بالأَوْلَى جداً تصوُّر أن إنحرافات شبابي تجعلك تهرب هلعاً. فلا تكفّ يا أبي، أثناء القصة المؤلمة التي سوف تسمعها، عن أن تصلي إلى الله لكي ما يكون رحيماً معي إلى اليوم الأخير».

القديسة مريم المصرية
تسرد قصة حياتها وتوبتها

«إني مصرية. ولما صار لي إثنتا عشرة سنة، إصطحبني أبواي معهما إلى الإسكندرية التي كانا يقطنان بها منذ ذلك الوقت. وكان الفسق منتشراً بها علناً في أكثر الأحياء شهرة؛ وهناك تدنَّستْ طهارة نفسي؛ وتلطخت أفكاري بألف فكر نجس، وساد على قلبي ألف شهوة فاسدة، وسمحت لنفسي باشتهاء كل شيء، وبقيت لي فقط المخافة التي توقِّر أبي وأمي، اللذين من ناحية أخرى كانا يراعيان حراسة مشدَّدة على علاقاتي ومسالكي. وفقدت إثنيهما واحداً تلو الآخر. وآذن موتهما بساعة تحرري، ولكن ما هي؟ وعهارة نفسي التي سبق وطغت عليَّ ظهرت في

أعـمـالي، ففـقـدت عـذراو يـة جـسدي، هذا حدث فعلاً؛ وخلال سبعة عشر عاماً إسـتسلمت لشهواتى المضطربة، ليس عن احتياج ولا عن حب لتقدمات ومجوهرات بل فقط لإشباع حواسي الدنيئة.

وفي أحـد أيـام الـصيف، لمحت جمعاً عظيماً من المصر يين والليبيين متجهين نحو الميـنـاء، فـجر يت لأعرف ما الخبر. واستعلمتُ من أول عابر أتى، فعرفت أن كل هـذا الحـشـد تـوجَّـه إلى أورشـليم مـن أجـل تـمـجـيد الصليب المقدس، الذي كان سيُـحتفل به قر يباً، وجاءني الفكر سر يعاً: ,,ترُى هل يصطحبونني، لو أردت أنا أيضاً أن أمضي معهم؟ ،،»

ـ «ولِمَ لا؟ إن كـنـتِ تستطيعين أن تدفعي ثمناً لمكانك وتعدّي إحتياجاتك للرحلة». فأجبت أنا:

ـ «أقول الصدق، أيها الرجل الشجاع، إنه ليس معي شيء ما أدفع به نفقات الـرحـلـة والـطـعـام، ومـع ذلـك فإني أرحل، ولست أقلق من أجل ذلك ولا قليلاً. فـسـوف ألـتـحق بأحد الأعمال؛ وسوف أجد ما أعيش به حسناً؛ لأني أنا أيضاً لي تجارتى».

أنظـر إلى حمـاقتي أيها الأب؛ أنـظر إلى خزيي. كان هدف رحلتي لا يزال هو إهـلاك الـنـفـوس. وأيُّ مَـن كـنـت أناديه في الشارع لم يكن يأنف من هذا الأمر. وفهم هو المعنى الفاحش الذي وراء الإصطلاحات المستعملة؛ و بدأ يضحك و يتابع طر يقه. أما أنا فدون أن أدخل إلى المنزل، تمشيت بخفة نحو الميناء، ولمحت جماعة مـلـتـئـمـة تـتـنـاقش، نحو إثني عشر من الشباب، وكان لديَّ الإحساس بنجاحي. فـاقـتـر بت و بغير حياء إلتحقت بهم. وقلت لهم: يا شباب، إصطحبوني معكم فإنه ليس لي ما يكفي لنفقات الرحلة؛ وعند رجوعي سأكون نافعة بقدر ما أستطيع. فهل

فـهـموا أن إنحراف نواياي يتفق تماماً مع الشهوات المضطرمة لهذا العمر؟ أم بالأكثر لم يـروا فيَّ إلا إنسانة مسيحية قليلة الحظ سوف يؤدون لها خدمة صالحة؟ لا أستطيع أن أقـول؛ لـقـد وافقـوني تـمـامـاً؛ وبما أن السفينة التي إندفعوا إليها لم تستطع بعد أن تـأخذ أي إنسان أو حمولة، نزلت اليها منتعلة حذاءً ومرتدية كما كنت. ورُفع المرسى وسط تـصـفـيـق الحشد الذي تجمع أمام الملاحين. وحييت بيدي مع رفاقي السعداء أوقـات المـديـنـة الـعـجـيـبـة التي أخذت تختفي مع كل ضربة للمجداف. وإذ عبرنا «الثوار» (٥) جزنا خارج الميناء الكبير، و بسطنا القلوع التي ملأتها الرياح المواتية، وسرعان ما لم أعد أرى من الإسكندرية إلا منارتها المضيئة التي كان نورها يلمع من بـعيد مثل نجم في المساء، وانتهى بأن غاب وسط الأمواج. لنسدل الستار يا أبي على هـذه المـرحـلة من التأنيب القاسي جداً على كياني الشقي. أمر واحد يذهلني، هو أن الـبـحـر أمكن أن يحتمل مثل هذا الفسق، وأن الأرض لم تنشق تحتي لكي تبتلعني، بل نزلت من السفينة، حية، ولكن إلى الجحيم.

كان الله ينتظرني، وهو الذي لا يريد موت الخاطىء، و بأي طول أناة! وأخيراً صـرنـا في أورشـليم. ولم تـغير الإقامة في المدينة المقدسة شيئاً قط من نواياي الأثيمة؛ بل صـرت هـنـاك على أسوأ حال، ما لم أكن عليه قط، بل واكثر من ذي قبل. فقد أهـلـكـت نـفـوس شباب، ناصبة أشراكي لبراءتهم؛ وأخيراً لاح يوم العيد، وكنت أرى الجـمـوع مـتـجـهـة إلى بـازيـليكا القيامة، والتحقت بهم، فوصلت أو بالأولى حُـمـلـت إلى البهو الداخلي، حيث كنت أحتمل حركة تموج الناس، وكنت أنتظر دوري لـلـدخـول إلى الهيكل. وتمايلت منسحقة ومختنقة عشرين مرة، وأخيراً بلغت إلى عـتـبـة الـباب. وكنت على وشك أن أدخل كالآخرين. ولكن لم أدخل؛ كان الآخـرون يـدخلون بكل سهولة؛ أما أنا فعبثاً حاولت تحريك ساقي، وكنت أتمشى

(٥) هكذا كان يُسمى المدخل الضيق جداً لميناء الإسكندرية القديمة.

في المكـان؛ وكـانـت قوة غير منظورة توقفني تماماً أول الأمر، ثم منعتني من الدخول ولفظتني إلى الخلف... فوجدت نفسي منفردة عند المدخل. واعتقدت أن هذا بسبب ضـعـف أصاب روحي نجم عن التعب أو لعله محض تخيلات؛ وصرت أضحك على نـفـسي وجربتُ لأَستردَّ مكـاني وسـط الجماعات التي حاصرت مدخل الكنيسة (البـاز يليكا) سائرة متشابكة الأذرع والأكتاف، من أجل أن أنقذ الوقت الضائع وأتـقـدم بـأكثر سرعة. وكان ذلك عبثاً. في ثلاث أو أربع محاولات، حدثت نفس الـظـاهـرة التي لا أسـتـطـيـع أن أشـرحـها: لقد دخل جميع الناس بحرية، وأنا فقط أُوقـفـت، مقهورة ومدحورة وخازية. وإذ مللتُ من المقاومة، بارحت الحفل مغلوبة على أمـري، واعـتـزلـت في زاويـة مـنـعـزلـة من البهو الخارجي كي أستجمع قواي، وانتهيت في تأملاتي، إلى أن أستخلص سبب هذا النكوص الشاذ. هوذا عدم جدارة سـيـرتي كـان هـو الـعقبة. فأية شركة يمكن أن تكون هناك بين امرأة مفضوحة زانية وصلـيـب يـسـوع المسيح؟ وللوقت ذُبْتُ في دموعي وانفجرت باكية؛ وأخذت أقرع صـدري. وبـغـتـة في أثـنـاء بكائي لمحت فوق رأسي صورة العذراء؛ فصحت: «أيتها الـعـذراء مريم، إني أعلم أن إنسانة دنسة مثلي لا تجسر على أن تلقي نظرة على صورتك الـعـذراوية؛ فـإن طـهـارتك التي بلا عيب يجب أن تأنف مني. ولكن إسمعي: ألم يـتـجـسـد ابنُك الإلهي من أجل خلاص الخطاة؟ هيا إذن لمعونتي في محنتي، يا أمي دعـيـني أدخل بحرية إلى الكنيسة، حتى أمضي وألصق شفتيَّ بخشبة الصليب حيث جرى خلاصي. أزيلي تلك القوة التي تعترض دخولي؛ لأني مصممة على ذلك، ولن أستسلم قط فيما بعد لشهواتي الخزية. وحالما أُكرِّم صليب ابنك الوحيد، فسأودِّع إلى الأبد العالم وكل مسرَّاته، وسأمضي إلى هناك حيثما تقودني يمين أمومتك».

ولـمـا أكملت هذه الصلاة وقررت هذا النذر، أحسست بنفسي ممتلئة إطمئناناً؛ وكـان لـدي الإقـتـنـاع الراسخ بأنه قد استُجيب لي. وللحال تركت الموضع المنعزل

الـذي سـمع للـتوّ تـوسلاتي الحز ينة. و بتصميم أخذت مكاناً وسط الجمع المحاصر لـبـاب الـكـنيسة (البازيليكا). فحدّث إذن عن عواطفي ومخاوفي عند الإقتراب من المـكـان الـذي لُـفِـظْـتُ مـنـه عدة مرات منذ قليل...؟ لقد اختبرت القلب الممتلىء إتضاعاً وتبكيتاً، جاعلة نفسي صغيرة بقدر ما استطعت، أمام جلال العليّ. وهأنذا أخـيـراً على العتبة. فيالمعجزة صلاح الله! لقد رُفعت من أمامي كل عقبة؛ ودخلت كـالآخـرين إلى الهيكل وأنا مرتعدة من هامة الرأس إلى أخمص القدم، وشاحبة من الـتـأثر؛ وسجدت على الدَرَجِ، و بللتُ بدموعي الخشبة المقدسة، كما لو كنت أُقبِّل صـلـيـب الجـلـجثة نفسه، ونسيتُ نفسي في الصلوات حتى إني أطَلْتُ إلى نحو نصف النهار، وعـنـد الخروج مـن الـكـنـيـسة رجعتُ إلى أسفل الرواق، إلى ذلك المكان المـنعزل حيث استرجَعت لي القديسة مريم خلاص قلبي الفاسد. فثبَّتُّ ناظريَّ عليها ورددت لهـا مـا يشبه هذه الكلمات: «يا أمي الرحيمة جداً، لقد لجأتُ إليكِ لكي تـعـطـيني بـرهـانـاً ملموساً عن صلاحك؛ إنكِ لم ترفضي الصلاة من خاطئة شريرة؛ فـشـكـراً لإذعـانـك لإشـتـيـاقـاتي الصـالحة! ومجداً لله الذي بتوسُّطك يقبل تأسُّفات الخـطـاة! وأنـا الـفـتـاة الـشـقية غير جديرة بأن أفكر وأعبِّر عن أفضل ما في قلبي من المشاعر، والآن يا أُمي أريد أن أُوفي نذوري، فقوديني إلى حيث تريدين؛ لتصيري أنت سيدة حياتي الجديدة، وكوني لي مرشدة في طريق التكفير والتوبة».

وحـيـنـئـذ رنَّ صـوت لـطيف جداً في آذاني: «يا ابنتي! اعبري الأردن وسوف تجدين وراءه مكان خلوة ملائمة لتمنياتك».

وإذ تـأثـرت بهـذا الـتـوجـيـه غير المـتوقَّع والرقيق من العذراء، أطلقت إليها هذا الـتـوسـل الأخير الـذي عـبَّـرت بـه عن كل امتنان نفسي: «يا أمي، من فضلك لا تتركيني!»

ولـلـوقـت بارحت بهو الكنيسة (كنيسة القيامة)؛ و بلا وعي كنت أسير، ودون

أيِّ إنتباه لأحد. ورآني رجل وأنا خارجة فتقدم إليَّ و بسط يده نحوي وأعطاني ثلاث عملات وقال: «خذي يا أمي ما يعطيه لك الله». فلفظتُ بضع كلمات شكر، ومضيت في طريقي. ووقفت عند أول مخبز صادفته واشتريت ثلاث خبزات، طويتها في ردائي؛ وسألته أن يدلّني على الطريق المؤدي إلى الأردن، و بدأت أركض أكثر مما أمشي. وكنت دائماً أسجد للصليب نحو الساعة الثالثة من النهار، وعند غروب الشمس وصلت إلى كنيسة القديس يوحنا المبنية قريباً جداً من النهر المقدس حيث صليتُ هناك، ثم توجهت إلى شواطئه وغسلت وجهي و يديَّ. ودخلت في هذا الموضع المقدس، وهناك قبلتُ سر الغفران المقدس، ثم حضرتُ القداس الإلهي وشاركت في الأسرار المقدسة: جسد ودم المسيح الأقدسين؛ ثم إذ كنت أكثر شجاعة، مما لم أكن عليه من قبل، عُدتُ ثانية إلى الأردن، وجلست على شواطئه الخضراء وكسرتُ نصف خبزة، ثم تمددت على الأرض لآخذ بضع ساعات من الراحة. وفي الصباح نقلتني سفينة إلى الشاطىء الآخر ودعوت قائدة حياتي السماوية أن تتفضل وتوجهني حسب مسرتها، وإذ كنت أتعمق في البرية القاحلة، وصلت إلى الموضع الذي نحن فيه الآن في هذه اللحظة. وهوذا أنا أُقيم يا أبي، هنا، في العراء، دون أي مكان محدد؛ وأنتظر هنا بكل إطمئنان نور الله العظيم.

□□□

وقاطع زوسيا القصة متأثراً من هذه المرأة المذهلة: «يا أمي منذ كم من السنين تعيشين في هذه العزلة؟»

ــ «لي الآن سبع وأربعون سنة منذ تركت المدينة المقدسة».

ــ «وكيف استطعتِ أن تعيشي ههنا، لأني هوذا لا أرى شيئاً قط يمكن أن يقيم أَوَدَ حياة إنسانية؟»

ــ «كان لديَّ أولاً الخبزتان ونصف الخبزة التي بقيت لي حينما عبرت الأردن؛ وسرعان ما يبست سريعاً؛ وكنت أقرقشها، قطعة صغيرة بقطعة صغيرة؛ والله الذي لا ينضب معينه قط إهتم بالباقي».

ــ «أهكذا إذن عبرتِ بلا صعوبات سنين كثيرة هذا عددها؟ وهذا اللون الشظف من الحياة كان بالضرورة بمثابة تضحية كبيرة؟»

ــ «إن النذر الذي قطعته على نفسي لم يكن متعباً قط لأكمله، ولكن التجارب التي اختبرتها كانت كبيرة جداً حتى إن مجرد ذكرها اليوم أيضاً يريعني. لقد قاتلت خلال سبع عشرة سنة الشهوات غير المروضة التي للطبيعة الرديئة، كما مع وحوش حقيقية، فإن كان الجوع يؤرقني، فإن الشهوات المنفلتة للشراب كانت تلهب روحي (لأني كثيراً ما أسأت إستعمال الخمر الفاخرة خلال سنوات خطاياي)! وهنا ليس لي ما أشربه قط حتى مع الحرارة الشديدة جداً، وعطشي هذا الذي لم يروَى كان لي عذاباً غير محتمل. لقد توارد على شفتيَّ ألف أغنية خليعة، وألف ميل شهواني، وحينما كنت أقرع صدري كنت أستثير الذكريات الحاضرة دائماً في نفسي عن توبتي، وكنت أستوصي نفسي بدموع لدى حاميتي السمائية، العذراء التي ظهرت لي عند الباب، والتي صورتها السمائية لا تزال تملأ عينيَّ. وإذ كنت أبكي كثيراً وأصلي جيداً، كان نور لامع يحيط بي من جميع الجهات وكانت التجربة تُولِّي عني سريعاً. ومرات أخرى كانت ألف صورة خليعة وألف فكر عالمي يدهم نفسي، الأمر الذي كان يلقي في قلبي ناراً محرقة ويجعله كما لو كانت ناراً ملتهبة تجري في عروقي. حينئذ كنت أسجد إلى الأرض وأبقى أحياناً في هذا الوضع أياماً وليالي حتى يحيط بي النور الإلهي مثل دائرة ويحميني حتى لا تتسرب التجربة إلى نفسي. كانت العذراء حقاً قائدة لحياتي في التوبة. وخلال هذه السبع عشرة سنة حمتني بصورة منظورة وقادتني يداً بيد».

ــ «ولكن ماذا عن موضوع الأكل؟ والملبس؟» .

ــ «لما أتيت على الخبز الذي أحضرته معي، صارت الأعشاب والجذور الموجودة هنا وهناك في ثنايا البرية هي طعامي، وملابسي تهرأت من الإستعمال قطعة بعد قطعة. وقاسيت جداً من البرد والحر عاماً بعد عام وفصلاً بعد فصل. في أوقات معينة كنت أحترق من الشمس وفي أوقات أخرى كنت أرتعد من البرد، إلى الدرجة التي كنت أبقى فيها مغشياً عليَّ على الأرض، وقد حفظني الله رغم كل شيء إلى هذا اليوم؛ وحينما أتذكر أيضاً الشرور التي حفظني منها، أتيقن، يا أبي، أكثر مما لم يحدث قط سابقاً، من خلاصي بثبات. وهذا الماضي المعجزي حقاً إنما هو ضمانة بلا جدال لأبدية سعيدة» .

ــ «ولكن يبدو لي أنكِ تعرفين الأسفار الإلهية والمزامير؟ فمَنْ إذن الذي علمكِ إياها؟»

ــ «منذ أن تركت العالم يا أبي وعبرت الأردن، لم أَرَ قط وجه إنسان؛ أنت هو أول كائن حي أقابله، كما أن عينيَّ لم ترَ وحوشاً ولا أي حيوان. لم أدرس قط ولكن الله هو الذي يوزِّع ثروات علمه لمَن يطلبها. أعتقد يا أبي أنه لا ينبغي عليَّ أن أسترسل أكثر الآن لتعرف بالتفصيل تاريخي الذي يُرثى له، ولا يبقى عليَّ الآن إلا أن أطلب بإلحاح من محبتك صلاة حارة لأجلي» . وانحنت للوقت من أجل أن تَقْبَلَ بركة الكاهن الشيخ، أما هو بدوره فقد رفع يديه المرتعشتين وصاح بدموع:

ــ «مباركٌ الله العلي الذي يكمِّل هذه المعجزات العظيمة! مباركٌ الله الذي يكشف لي كنوز النعمة التي يفيضها على قلب أولئك الذين يخافونه» !

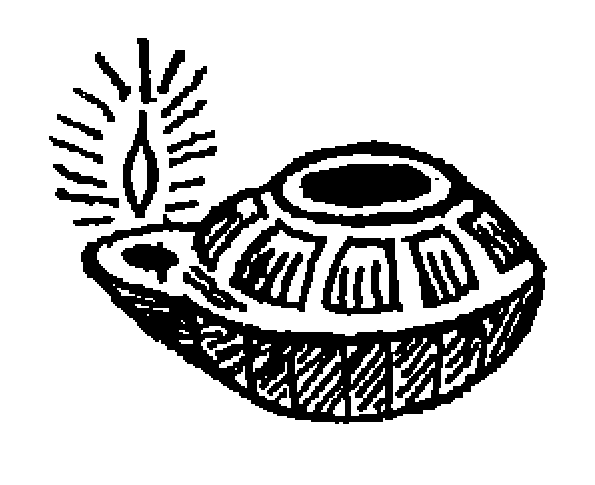
واتجهت بسرعة لتمنع بيدها الشيخ عن أن ينحني أمامها ليَقْبَل بركتها؛ ولكنها أسْدَتْ إليه هذه التوصيات الأخيرة:

ــ «أناشدك بالمسيح ابن الله مخلِّصنا ألا تحكي قط عن شخصي وعن حياتى

لأي أحد مهما كان، قبل أن أكون قد قدمت تقدمتي، أي إلى الموت. والآن يا أنبا زوسيما أرجع بسلام إلى ديرك. وسوف نلتقي أيضاً بعد عام في الصوم المقدس القادم، لا تعبر الأردن كما هي العادة ولكن إلبث في ديرك، هذه هي إرادة السماء؛ وفي مساء يوم الخميس المقدس، تعالَ إلى شاطىء النهر، إلى أقرب بقعة فيه، وأحْضِرْ معك الجسد المقدس والدم الكريم اللذين للمسيح، وانتظرني هناك بكل صبر. فإني سآتي وأتناول من يدك الأسرار المقدسة التي لم أقبلها منذ دخولي إلى البرية. ولي رغبة ملحّة في أن تتحد نفسي بإخلاص بربي يسوع، وأن توصي الأنبا يوحنا مدبِّرك، ليس الآن ولكن فيما بعد، بأن يسهر حسناً على القطيع المؤتمن على رعايته، لأن بعضاً من حملانه بحاجة كبيرة إلى التقويم. إذن، يا أنبا زوسيما، موعدنا العام القادم على الشاطىء المقابل للأردن، في الساعة التي أكل فيها المسيح الفصح الأخير مع تلاميذه، وصلِّ كثيراً من أجلي!»

وتركت القديسة مريم المصرية أنبا زوسيما منذهلاً جداً من التفاصيل الدقيقة جداً التي ذكرتها للتوّ عن جماعته؛ وكانت فعلاً قد ابتعدت كثيراً حينما أفاق هذا الأخير من دهشته؛ وقد تابعها بعينيه حتى اختفت تماماً في أعماق البرية، ثم سجد وقبّل الأرض التي وطئتها قدما هذه القديسة، ثم رجع في طريقه إلى الدير، حيث وصل تماماً في اليوم السابق لأحد السعف وهو اليوم المحدد لعودة جميع الرهبان.

وحفظ زوسيما بأمانة طوال العام السرَّ المُوْدَع في نفسه، وكان يصلي من أعماق قلبه من أجل التائبة العجيبة التي كانت له لهفة مقدسة ليراها ثانية؛ وكان الزمن يبدو طويلاً؛ ولكنه كان يسترق الزمن باشتياقاته الحارة.





القديسة مريم المصرية مُعانة بالملائكة وهي في برية الأردن

لوحة تخيلية للفنان لورنزو دي كريدي (١٤٥٦ ـ ١٥٣٧)
مرسومة بالزيت على الخشب

وعادت أخيراً الأيام المباركة التي للصوم الكبير. وكما هي العادة، بدأ الرهبان خروجهم للعزلة باختيارهم، وكان زوسيما قد أخذته الحمى في اليوم السابق للرحيل؛ وألزمه المرض بأن يبقى في موضعه: وكملت نبوة القديسة بالحرف، ورأى في حالته الإذن من الله (بأن يبقى في الدير)، ومن ناحية أخرى فمرضه لم يكن خطيراً ولا دام طويلاً، ولكن تماماً بقدر ما ينبغي لتبرير الخروج عن القاعدة العامة. وفي يوم الخميس الكبير مساءً، أخذ حُقّاً صغيراً وأودع فيه جسد ودم المسيح، وأخذ أيضاً سلة وملأها تيناً و بلحاً وفولاً مبلولاً بالماء ومضى ليجلس على شاطىء النهر منتظراً مجيء التائبة، وتهيأت هي للإنتظار.

وكان زوسيما قلقاً جداً وعيناه مثبتتان نحو البرية، بينما كان يسبر أغوارها. ومال قمر الفصح للغروب بهدوء على الرمال الدافئة. ولم يحضر أحد! وفكر الشيخ ربما أنها قد أتت وإذ لم تجدني أميناً للموعد مضت، ومن ناحية أخرى فهي إن أتت فكيف سيمكنها أن تعبر المياه؟ فليس هنا زورق ولا قارب؟ وكان يمزج هذه الأفكار الطبيعية بالتوسلات الحارة.

و بغتة، لمحها واقفة على الشاطىء المقابل أمامه، فنهض طافراً من الفرح، وإذ صاح شاكراً نحو السماء، رآها حينئذ ترسم علامة صليب كبيرة على عينيها، ثم تتقدم نحو النهر، وتضع قدمها على الأمواج الجارية وتتجه بهدوء نحوه، و بإزاء مثل هذه المعجزة، كانت الحركة الأولى لزوسيما هي أنه إنحنى لها؛ و بصوت ثابت صاحت: «يا أبي الكاهن ماذا تفعل؟ هل نسيت أنك تحمل الأسرار المقدسة؟». وللوقت سجدت هي في عبادة صامتة. وطبقاً لعادة ذلك الزمان رددت بصوت مرتفع إعتراف الإيمان المسيحي والصلاة الربانية، ثم تناولت من الأسرار المقدسة. و بعد بضع لحظات رفعت يديها إلى السماء وصاحت بسرور: «الآن يا سيدي تطلق عبدتك بسلام لأن عينيّ قد أبصرتا خلاصك». وحينما رجعت إلى الكاهن الذي

وقـف بلا حراك، قالت: «يا أبي هناك أمر جديد أطلبه منك. أرجع ثانية في السنة الـقـادمـة إلى الـوادي الـصـغير المنعزل الذي شهد لقاءنا الأول، وسوف تراني هناك أيضاً تبعاً لمشيئة الله الصالحة».

ـ «يـا أمـي المـوقَّـرة! التي لا أستطيع أن ألاحقها في البرية: على الأقل إقبلي مني هـذه المؤونـة الـبـسيطة التي أعددتها لكِ خاصة». وكان صوت زوسيما متوسلاً وأدركت هي أنها إن رفضت تماماً فسوف تسبب للشيخ حزناً عظيماً. ومن أجل أن تـنـزل على رغـبـتـه، مدّت يدها في السلة وأخذت منها بعض الفول وقالت له بشكر جـزيل: «يـا أبي تـكـفي نـعـمـة الروح القدس لحفظ الجسد من الفساد؛ إستمر على الـصـلاة مـن أجلي كـثـيـراً». ورسمت حينئذ علامة صليب على النهر وعبرته ثانية بـأقـدامـهـا الـعـاريـة ومضت إلى بريتها ممتلئة رهبة. ومضى زوسيما إلى قلايته فرحاً جـداً. رغـم أنه كان متأسفاً لأنه لم يسألها حتى الآن عن اسمها؛ وتعهد في نفسه أن يستفسر عنه في الفصح القادم.

ولما كـانـت الأمـور تجري هكذا، ومضى صومان كبيران، ترك زوسيما الدير في الـتاريخ المحدد كيما يتعمق في الوحدة ويقضي فيها الأربعين المقدسة. وبكل سرعة وصل إلى مكان اللقاء الأول مع الكائن السرّي الذي استخلص منه جميع الأسرار، إلا اسمه، وإذ كان يلهث بشدة نزل إلى الوادي الصغير المتميز الذي سمع حديثهما. وكـان يـنبغي أن تنظره، ولكن أين؟ فنظر حوله؛ وراح يفكر في أكثر مما يمتد نظره، سـهـول البرية التي تختفي بعيداً، وبدأ يطوف الشواطىء المتعرجة التي تحيط بالوادي الـصغير، فاحصاً أصغر الثنيات. وفجأة توقف مأخوذاً بعاطفة مبهمة: فهناك، قريباً جـداً أمـامه كانت هي بغير حركة ووجهها متجهاً نحو الشرق، ويداها منعقدتان في صلابة الموت. فسقط جاثياً، وبلل بدموعه أقدام الجليلة المتوفية، غير مجترىء على أن يـلـمـس رفاتهـا، وإذ أفـاق مـن تأثره الأول ردد صلوات الدفن مريداً بعد ذلك أن

يـفـحـص عـن كـشب سمات الوجه، فرأى مكتوباً على الرمل بحروف عميقة، هذه الكتابة: «يا أنبا زوسيما، كفِّن هذا الجسد الذي للمسكينة مريم. أَرْجِعْ إلى التراب جسد الخطية هذا وصلِّ لأجلي أنا الذي تنيحتْ في ليلة آلام الرب، بعدما تغذيت من جسده ودمه». وهذه القراءة أفاضت قلب السائح القديس بالفرح، إذ علم منها هكذا اسم القديسة وتاريخ موتها في نفس الوقت. وكانت المناولة المقدسة على شواطىء الأردن هي معبرها إلى السماء، ونقلته قوة إلهية من النهر إلى الوادي الصغير؛ في أقل من ساعة، وأكمل مسافة عشرين يوماً من السير.

وإذ كان زوسيما موزعاً بين الحزن والفرح، سعى ليحفر حفرة كيما يكمل رغبة القديسة الأخيرة، وإذ لم تكن لديه أية آلة، عثر على بعض قطع الخشب أطرافها ليست حادة تماماً وحاول مرات عديدة أن يتعمق الأرض، ولكنها إذ كانت صلبة جداً أَبت أن تستجيب لجهود العامل المجتهد، وتصبب العرق من وجهه، وجسمه النحيل من طول السنين أُنهك باطلاً من هذا العمل. وكان بالكاد يستقيم من أجل أي يسترد قوته.

وإذ رفع عينيه، لمح بجوار الجثمان أسداً هائلاً وهو نصف راقد على جنبه ورجلاه الأماميتان إلى قُدّام، وعيناه مسبولتان بلطف ولسانه مدلى، وعند رؤيته لهذا المنظر غير المتوقع، وإن كان لم يرتحْ إليه لأول وهلة، خاف زوسيما جداً، وخاصة بقدر ما أكَّدت له القديسة أنها لم تَرَ قط وحوشاً في البرية. فتسلح بعلامة صليب كبيرة واعتقد أنه في مأمن من مغامرة محزنة جداً؛ ولم يكن مخطئاً في ذلك. إذ تقدم ملك الحيوانات كما لو كان يزحف بخطوة وئيدة نحو جسدها، وقد جعل عينيه المملوءتين عُتُوًّا لطيفة ومعبِّرة بقدر الإمكان، وللوقت صاح المتوحد العجوز كما بإلهام: «أيها الحيوان الجميل، لقد أرادت هذه القديسة أن أدفن جسدها، وهذا

حسن جداً ، ولكن كيف نعدّ لها قبراً ؟ فاعمل إذن بمخالبك العمل الذي لم أستطع أن أعمله بلا أدوات بهذا الخشب الضعيف ؛ وهكذا أستطيع أن أوْدِع في الأرض هذه الوديعة الثمينة » .

وقيل إن الوحش لم يكن ينتظر سوى هذا الأمر الأخير و بدأ في العمل بقدميه الأماميتين و بقدميه الخلفيتين وقام بدوره في الحفر عدة مرات بنشاط كبير. وحفر الأرض بسرعة وأخرج منها أحجاراً وأقام فيها حاجزاً من الرديم ، ولما أكمل عمله ، نام في الحفرة ضارباً بجنبيه و بذيله المزركش على جوانب الحفرة المحفورة ، وهكذا ساعد حسناً في دفن هذه التائبة الجليلة .

وأودَع زوسيما الجسد في الحفرة باحترام مقدس ، وغطاه بالتراب . وترك أثراً صغيراً ليمكن العثور عليه مستقبلاً ، ثم رجع إلى الدير لأجل أعياد الفصح . ورجع الأسد لطيفاً مثل الحمل الرقيق جداً ، رجع بهدوء إلى عَرِينه .

□□□

وإذ قد تحرر زوسيما من كتمان السر حكى القصة العجيبة للقديسة التائبة بكل تفاصيلها ، وليس من شك في أنه كل سنة طيلة حياته كان الوادي الصغير يجتذب خُطَاهُ في فترة الصوم الكبير المقدس .

□□□

ثم إنه لما أكمل سنواته وفضائله مات الأب زوسيما الطوباوي في ديره وله من العمر مائة سنة .

وقد اكتُشِفت رفات القديسة مريم المصرية في عهد بطريركية البابا الروماني ، هورميسداس (٥١٤ ــ ٥٢٣) . وأرسل يوحنا بطريرك أورشليم جزءاً منها إلى روما

وجزءاً للأسقف إيليفثيروس الذي من تورينة (فرنسا)، وهذا الأخير كان من نصيبه رأس القديسة. وحينما كان يرفع التقدمة، كان نورعجيب يأتى من فوق و يعمل عليه هالة و يدوم طوال وقت التقدمة. وفي نفس اللحظة كان يشفي مرضى كثيرين من المطروحين في الدهليز، كما حدث أن استعاد أخرس إستطاعته للكلام فجأة.

وتعيّد كنيستنا القبطية لعيد نياحة هذه البارة يوم: ١٤ أبريل — ٦ برمودة.

وردت هذه السيرة أصلاً في المخطوطة التالية:

– St. Sophrone de Jerusalem, P. L. ; LXXXIII, G 71.

كما وردت في:

– Hildelbert, évêque du Mans, Vie en Hexamètres Latins.
(mort archévêque de tours en 1134.)



صورة ظهر الغلاف :

أيقونة قديمة في أحد الأديرة الأرثوذكسية ببلاد الصرب تمثل أحد مناظر حياة القديسة مريم المصرية والقديس زوسيما يناولها من الأسرار المقدسة.

